بسم الله الرحمن الرحيم

يا طالب العلم؛ هلمَّ شيد صرحًا للعلا توّاق!

بِسمِ الله القائل: (وحرض المؤمنين) والصلاة والسلام على أوّل المُحرضين وإمام المُجاهدين وسيّد المُستنفرين وعلى الآل والصحب والتّابعين؛ أمّا بعدُ:

قال ربي جل في علاه: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: 18]، وقال أيضًا: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} [فاطر: 28]، وقال جل جلاله: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: 9]، وقال مُخاطبًا عبده ونبيه خير الأنام صلى الله عليه وسلم: {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء: 113]، وقال تعالى في سورة المجادلة: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}.

وعن كثير بن قيس، قال: أتيت أبا الدرداء وهو جالس في مسجد دمشق فقلت: يا أبا الدرداء، إني جئت من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم في طلب حديث بلغني عنك أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ما جاء بك حاجة، ولا جاءت بك تجارة، ولا جاء بك إلا هذا الحديث؟ قلت: نعم، قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العالم ليستغفر له من في السموات، ومن في الأرض حتى الحيتان في جوف الماء وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر).

هذه آيات مُحكمات عظيمات، وحديث واحد من بين أحاديث أخرى كثيرة في فضل طلب العلم يكفينا لنعلم أي خيرٍ وأي رفعةٍ ينالها صاحب العلم إن هو أخلص النية وشد الهمة ومضى ينتقي من بساتينِ العلوم الشرعية ما يُفقّه به نفسًا ويرفع به جهلًا وينفع به أمة، ولكن مقالتي اليوم ليست عن هذه الفضائل، بل عن القاعدين من أصحاب تيك الشمائل، عن الخوالف من طلبة العلم ولستُ كلهم أعنيهم، فليس يهمني أصحاب العقائد الفاسدة والمناهج المنحرفة فحالهم حال مشايخهم ومشايخهم كالحمار يحمل أسفارا، بل أعني الخوالف من طلبة العلم ذوي الألباب والبصائر، السائرين في ركب الموحدين، الحاملين عقيدة الأولين، السالكين دروب الصالحين، المقرين بأن الحق ما عليه المرابطون على ثغور المسلمين.

وإن صغير القوم إن كان عالما *** كبير إذا رُدّت إليه المحافل

وإنّ كبير القومِ لا علم عنده *** صغير إذا التفّت عليه الجحافل

فيا طالب العلم، يا قبسًا من حقّ ويا شعاعًا من نور؛ أما آنَ لكَ أن تعمل بما علّمكَ الله؟! أما آن لكَ أن تحصد الزّرع وتقطف الثمار؟! أما آن لك أن تنفض عن روحك غُبار التخلف وعن توحيدك غبار التنظير؟!

عن علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– قال: "هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل".

ويكأني بعلمك يمسك بتلابيبك ويهزك هزًّا: هلّا أخرجتني من قمقم التحرير والتأصيل؟! طال بي القعود وملّتني المكتبات والرفوف وتكاد الدنيا وملذاتها تغشاني فارحم ضعيفًا لا يرجو إلا عملًا يصدق به علمًا!

يا طالب العلم أما سئمتَ ديار الكفر؟! أين شوقك لأمصار يعلوها الإسلام؟! أين دموعك على الشرع المُغيّب التي لطالما خضّبتَ بها مجالسكَ وأينَ أنات الحرائر التي كانت تقض مضجعك، هكذا كنت تقول!

أين تهديدك ووعيدك للقاعدين وأينَ تحريضك واستنفارك للمتخلفين وقد بتَّ مثلهم لا تفرق عنهم شيئًا! أما سمعتَ عن دولةِ الإسلام؟ أما أتاك نبأ جحافلها من العراق وحتى الشام؟!

رجال الدولة كانوا ومازالوا لنا فيّا *** حيّا الله فرسانًا ببغداد الأُلَى حيّا

وحيّا الله شُجعانًا بسور دمشقنا حيّا *** فهذي صفحة الأبطال تطوي ذلنا طيّا

وإن بقيام دولة الإسلام قيام الحُجّة عليكَ فما عاد ينفعك التنظير وإن بلغ به صراخك عنان السماء، لم تعد تنفع الدعوة إلى صحيح الإيمان والعقيدة خُطب سريّة ولا دروس في الخفاء، ولا تأصيل بين جدران البيوتِ خلسة ولا تحريض في جلسات أصواتها منخفضة وأضواؤها خافتة! وأما الكفر بالطاغوت فآن له أن يتجسد واقعًا، وأن تستبدل سيفك الذي من خشب بآخر هذهاذ ينضو على الأمة من جفن صدر ينبض توحيدًا!

أما تخشى أن يكون ما حملته من علم وبالا عليك بين يدي الله تعالى؟ أما يروعك ما جاء في الحديث الشريف من أن أول من تسعر بهم النار عالم لم يعمل بعلمه؟!

وعالم بعلمه لم يعملن *** معذب من قبل عباد الوثن

ويحك! أما تزلزل كيانك هذه الآية: {وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة: 46]؟ والله كنا نذكرها أنا وبعض أخواتي فترتعد منها الفرائص ونحن الإماء اللاتي جهادنا –حج وعمرة– لا قتال فيه!

قل لي بربك أوبعدَ هذا يطيب لك القعود وتحلو لك الحياة؟! تمني النفس بنصرة الحق ورفعة الدين وجناحاك في بلاد الطغيان مهيضة فأنى لكَ النصرة وأنى لك الرفعة والطاغوت يحكمك بالحديد والنار ودعوتكَ في دياره محفوفة بالخوف والترهيب ولا تكاد تتجاوز تراقيك، فلا المساجد مساجدنا ولا المنابر منابرنا بل لم يبق منهج ولا معتقد ولا حزب ولا طائفة بكل بدعهم وانحرافاتهم إلا وبات لهم منبر عدانا نحن وعقيدتنا!

فهلا لفضتَ بلادهم بما فيها كما يلفض البحر الجيف، وهلا يمنت بطرفك نحو شامنا، وهلا غذذتَ السير إلى الدولة الإسلامية في العراق والشام! هلمّ شيد فيها بعلمك صرحًا من صروح المجد من جديد فيعود عزّ أمتنا التليد!

يوازي الجبال الراسيات وقارنا *** وتبنى على هام المجرة دارنا

ويأمن من صرف الحوادث جارنا *** وما ضرنا أنا قليل وجارنا

عزيز وجار الأكثرين ذليل

يُروى عن عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم أنه قال: (إلى متى تصفون الطريق إلى الدالجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين؟! إنما يبتغى من العلم القليل ومن العمل الكثير)، فإلى متى تصف طريق الحق إلى غيرك وأنت تقيم بين ظهراني الكفر والشرك، بين عفن الديمقراطية ودرن الليبرالية وتلبيس الجامية ونفاق السرورية؟!

الحكمُ للهِ ليس الحكمُ ما وضعوا *** حاشاكِ شِرْعتَنا ما فيكِ مِنْ دَخَن

في ظُلمةِ الكفرِ لا دينٌ هناك ولا *** عِرضٌ يُصانُ ولا ثوبٌ بلا دَرَن

أين الجيادُ التي كانت مصفَّفةً *** أين الرجالُ يكادُ الغمُّ يقتلُني؟!

أين عملك يا طالب العلم وإلى متى التسويف والتأجيل؟! "فليس للعبد أنفع من قصر الأمل ولا أضر من التسويف وطول الأمل" كما قال ابن القيم–رحمه الله تعالى–.

ويحك؛ أتخذت عند الله عهدا أنك عن قعودك وخذلانك لن تُسأل؟! هيهات هيهات بل احذر أن تكون من الذين يقولون ما لا يفعلون: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: 2–3].

قال سهل بن مزاحم: (... وَكَمَا لَا تَنْفَعُ الْأَمْوَالُ إِلَّا بِإِنْفَاقِهَا، كَذَلِكَ لَا تَنْفَعُ الْعُلُومُ إِلَّا لِمَنْ عَمِلَ بِهَا، وَرَاعَى وَاجِبَاتِهَا فَلْيَنْظُرِ امْرُؤٌ لِنَفْسِهِ، وَلْيَغْتَنِمْ وَقْتَهُ، فَإِنَّ الثَّوَاءَ قَلِيلٌ وَالرَّحِيلَ قَرِيبٌ، وَالطَّرِيقَ مَخُوفٌ، وَالِاغْتِرَارَ غَالِبٌ، وَالْخَطَرَ عَظِيمٌ، وَالنَّاقِدَ بَصِيرٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى بِالْمِرْصَادِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَعَادُ).

ألم تقرأ في سير الأولين؟! بلى قد فعلتَ وأظنك تحفظ التراجم عن ظهر قلب تُزيّنُ بذكرهم مجالسكَ وتستعذبُ التغني برباطهم وجهادهم!

ألم تقرأ عن عالم أهل الشام الإمام الفقيه عبد الرحمن بن عمرو بن يحمر الأوزاعي صاحب العلم الغزير ولكن أين مات؟! مات مرابطًا في بيروت!

وهاهو ابن المبارك فارس القرطاس والسيف، من كبار المجاهدين في عصره، قال عنه الإمام الذهبي: (كان رأسا في الشجاعة).

عن المروزي قال: (كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم فصادفنا العدو فلما التقى الصفان انبرى واحد من الأعداء لقتال المسلمين، فكلما خرج له أحدهم قتله، حتى خرج له فارس من المسلمين عليه لثام فقتله، فازدحم عليه الناس وهو يلثم وجهه بكمه وكنت فيمن ازدحم عليه فأخذت بطرف كمه فمددته فإذا هو ابن المبارك فقال: وأنت يا أبا عمرو ممن يُشنع علينا؟!)، فرحمات الله عليك تترا يا إمام!

ثم الإمام الكبير المجاهد إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء بن خارجة بن حصن الفزاري الغطفاني المعروف بأبي اسحاق الفزاري، نزل جده أسماء بن خارجة بالكوفة، وبها ولد إبراهيم في بداية القرن الثاني الهجري، ثم انتقل إلى الشام مجاهداً ومرابطاً في الثغور الشمالية المحاذية للروم ومنها المَصِّيصة، ملطية، مرعش، طرطوس، الحدث... وكانت المَصِّيصة أبرز هذه الحصون، فسكنها الإمام الفزاري واتخذ من أهلها المرابطين إخواناً وتلامذة، وكان يقرأ عليهم كتابه: (السِّير) فيتركون أعمالهم ليستمعوا له.

قال عنه ابن كثير: (إمام أهل الشام بعد الأوزاعي في المغازي والعلم والعبادة، حدث عنه عبد الله بن المبارك، والأوزاعي والثوري وهما من شيوخه، وقال عنه العِجلي: كان ثقة، صاحب سنة صالحاً، وهو الذي أدب أهل الثغر، وعلمهم السنة وكان يأمر وينهى، وإذا دخل الثغَر رجل مبتدع أخرجه!).

وأما الإمام ابن حزم الظاهري فيكفيني في استشهادي بسيرته ما خطه يراعه من أبيات دريّة إذ قال -رحمه الله-:

مُنَايَ مِنَ الدُّنْيَا علومٌ أَبُثُّهَا *** وَأَنْشُرُهَا فِي كُلِّ بادٍ وَحَاضِرِ

دعاءٌ إِلَى القُرْآنِ وَالسُّنَنِ الَّتِي *** تَنَاسَى رجالٌ ذِكْرُهَا فِي المحَاضِرِ

وَأَلزمُ أَطرَافَ الثُّغُوْرِ مُجَاهِداً *** إِذَا هيعةٌ ثَارَتْ فَأَوَّلُ نَافِرِ

لأَلْقَى حِمَامِي مُقْبِلاً غَيْرَ مدبرٍ *** بِسُمْرِ العَوَالِي وَالرِّقَاقِ البَوَاتِرِ

كِفَاحاً مَعَ الكُفَّارِ فِي حَوْمَةِ الوَغَى *** وَأَكْرَمُ موتٍ لِلْفتى قَتْلُ كَافِرِ

فَيَا رَبِّ لاَ تَجْعَلْ حِمَامِي بِغَيْرِهَا *** وَلاَ تَجْعَلَنِّي مِنْ قَطِيْنِ المَقَابِرِ

ثم يأتي شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- شيخ الجهاد والرباط والتحريض، من جاهد أعداء الله باللسان والبنان والسنان.

ويلخص ابن فضل العُمري بعض ما حصل من ابن تيمية فيقول: "وحكي من شجاعته في مواقف الحرب نوبة شقحب ونوبة كسروان ما لم يُسمع إلا عن صناديد الرجال وأبطال اللقاء وأحلاس الحرب، تارة يباشر القتال، وتارة يحرض عليه، وركب البريد إلى مهنا بن عيسى واستحضره إلى الجهاد، وركب بعدها إلى السلطان واستنفره، وواجه بالكلام الغليظ أمراءه وعسكره، ولما جاء السلطان إلى شقحب لاقاه إلى قرن الحرة وجعل يشجعه ويثبته".

نعم يا طالب العلم؛ هذا هو شيخ الإسلام الذي تحفظ فتاويه وتستشهد بكلامه في كل مسألة ونازلة فهلا غبَّرت قدميك كما فعل وهلا صلتَ بسيفك كما كنتَ تصول بلسانك؟!

وهل أتاك نبأ صاحب مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق؟! قال الزركلي: (أحمد بن إبراهيم بن محمد، أبو زكرياء محيي الدين الدمشقي ثم الدمياطي، المعروف بابن النحاس: فرضي فاضل مجاهد من فقهاء الشافعية وُلد في دمشق ورحل أيام تيمورلنك إلى مصر فسكن المنزلة ولازم المرابطة والجهاد بثغر دمياط وقُتل شهيدا في معركة مع الفرنج مقبلا غير مدبر...) [الأعلام ١/ ٨٧].

هذه عينة من خيرة السلف والخلف الذين أبوا إلا أن يكونوا من العاملين، لم يركنوا إلى دنيا ولم تلههم زوجة ولم تثبطهم ذرية عن بيع النفوس الغوالي عندما انعقدت سوق الجنان (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) نحسبهم والله حسيبهم!

وأنت إلى ما تصبو من بعد الدروس وثني الركب وإلقاء الخطب والأمة لم يبقَ في جسدها موضع إبرة إلا وغدا جرحا يثعب دما! قد هاجر الرجال والنسوة والصبية في سبيل ربهم وبقيت أنت تقلب عينيك في ديار الطواغيت يمنة ويسرة ودولة الإسلام –دام عزها– على بعد حجر واحد منك!

وكيف تنام العينُ ملءَ جفونها *** على هفوات أيقظت كل نائم

وإخوانكم بالشام يضحي مَقيلهم *** ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

وتلك حروب من يغب عن غمارها *** ليسلم يقرع بعدها سنّ نادم

قسمًا دولة الإسلام تحتاجك؛ تحتاجك فقيهًا تحتاجكَ مفتيًا تحتاجكَ داعيًا تحتاجك قاضيًا تحتاجكَ محتسبًا تحتاجك مُحرّضًا للمرابطين ومثبّتًا لهم عند الثغر تذكّرهم بالله وترفع الهمم، تحتاجك خطيبًا على منابر لا يعتليها غير الصادعين بالحق!

هل أحدثك عن دواوين المظالم هنا؟ إنها والله تغص بالمسلمين كل وشكواه وكل ومظلمته ولم يحدثني عن ذلك زيد أو عمرو بل رأيت أحدها بأم العين؛ تطول طوابير المسلمين وعمل اليوم يستغرق أياما والسبب أنت يا طالب العلم، نعم فقعودك هناك يؤخر اكتمال البنيان ويؤجل العمار!

هل أحدثك عن الجهل والشركيات في هذه الأرض الطيبة المباركة؟! هل أحدثك عمن لا يحسن الوضوء فضلًا عن الصلاة؟! أدري أن لسان حالك الآن: (حتى حيث أنا الآن يوجد جهل وشرك ووو) نعم صدقتَ بل لا أبالغ إن قلتُ أن أمصار المسلمين اليوم غدت مراجيح جهل وشرك وكفر والعياذ بالله ولكن الفرق بين هنا وهناك؛ أن الدعوة هنا قاعدتها صلبة ومنهجها سليم واضح كالشمس في رابعة النهار والدعوة هناك قاعدتها رخوة ومنهجها عليك وعلى أمثالك مداراته وعدم الصدع به جهارًا حتى لا يعود ذلك عليكم بالاعتقال والتنكيل!

فحدّث عن ديارٍ ليس فيها *** من التوحيد إلا رَجْزَ حَادِ

وحدّث عن قبورٍ حين تُدعى *** وحدِّث عن طواغيت البوادي

ألا تُحب أن تعيش منتظرًا إحدى الحسنيين؛ نصرٌ أو شهادة؟! ألا تُحب أن يكون علمك حُجّة لك لا عليك؟! أما سئمت لمعة النظافة التي أرهقت نعليك؟ نريد لقدميكَ خطوات في سبيل ربك وبعض الطين يزينها ويشهد لك بين يدي الله! تقول إحدى المهاجرات بعد عبورها بسلام: (كنتُ أنظر إلى عباءتي الملطخة بالطين وإلى نعلي الذي لا يكاد يرى من سواده شيء وأقول في نفسي ربّاه إن هذا ليس غُبارًا بل طينًا وأشواكًا فتقبله مني يا الله)!

الله أكبر وطالب العلم لا يزال يلمع حذاءه وينصع ثوبه ويثني الركب في بلاد الكفر والجبروت!

ذكر الإمام الذهبي عن يونس بن عبيد رحمه الله: أنه (نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ عِنْدَ المَوْتِ، وَبَكَى، فَقِيْلَ: مَا يُبْكِيْكَ أَبَا عَبْدِ اللهِ؟ قَالَ: قَدَمَايَ لَمْ تَغْبَرَّ فِي سَبِيْلِ اللهِ)! [سير أعلام النبلاء 6/ 386].

هذا يوم كان الجهاد فرض كفاية فكيف والجهاد اليوم قد تعين؟!

والله ما على دولة الإسلام نخشى فالله سبحانه مظهرها بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل تحقيقا لا تعليقًا ولكنّا نخشى عليك السؤال في يوم تشيب لهوله الولدان، لن تنفعك حينها نفسك التي بين جنبيك والتي عليها جنيت، لن تنفعك زوجك المصون التي كلما تجهزت للنفير ساق الشيطان لك على لسانها من المثبطات ما الله به عليم! لن ينفعك ابنك المدلل الذي فتنك عن دينك، لن تنفعك دموع الوالدين وهما يرجوانك أن تقعد، لن ينفعك الذين تركتَ ما كتبه الله عليك لأجلهم، والله لن ينفعوك.

إذا هبّت رياحك فاغتنمها *** فعقبى كلّ خافقةٍ سكون

ولا تقعد عن الإحسان فيها *** فلا تدري السكون متى يكون

وكتبت من شام الخلافة مستنفرة لورثة الأنبياء وطلاب العلم الأتقياء، خادمة دولة الإسلام

أمُّ صفيّة المُهاجرة

لثلاث وعشرين مضين من رجب لسنة ١٤٣٥

من تاريخ الهجرة النبوية الشريفة.